عقل قدماء المصريين[1]

الخص لقراء المقتطف فصلاً من كتاب للوتورلوه عن عقل الشعوب

١ — شعوب الامة المصرية

اذا كان لا يمكن معرفة اسلاف المصريين القدماء تماماً فاليض الذين فتحوا البلاد واسسوا الدولة الاولى فيها لا شك في انهم كانوا من الشعوب البربرية التي ما زالت تسكن الصحراء وشمال افريقية بعد ان امتزجت بالشعوب السمراء او السوداء التي كانت في البلاد قبلهم . ويمكن القول بان هذه الشعوب خمسة وهي (١) الجوانش الذين وجد الاوروبيون بعض قبائلهم في جزائر الكناري عند اكتشافها في القرن الرابع عشر وقد انقرضوا الآن تماماً و (٢) الطوارق Touaregs الذين ما زالوا يسكنون بلاد الجزائر والصحراء و (٣) القبائل وهم يسكنون شمال افريقية . وهذه الشعوب الثلاثة بيضاء اللون . فبعد درس عقولهم نتقدم الى درس عقول الشعبين الآخرين اللذين امتزجا بهم وكونوا الامة المصرية وهم الموف سكان مدغشقر والاثيوبيون سكان الحبشة

(١) الجوانش . لما اكتشف البرتغاليون جزائر الكناري امام افريقية من الغرب الشمالي) في اواخر القرن الرابع عشر وجدوا فيها شعباً ابيض في عصره الحجري . وصفوه بانهُ جميل وقوي الجسم وخفيف الحركة . ولوحظ ان الخنان لم يكن معروفاً عندهم كما لم يكن معروفاً عند مؤسسي الدولة المصرية الاولى . وكانت شعورهم فاحمة اللون وصناعاتهم تنحصر على الزراعة ورعي المواشي ولكنهم كانوا ياكلون الحبوب بغير عجن واحياناً بغير دق . ويربون الخنازير والخراف والماعز . وبناتهم يمشين عراة ولكن بقية السكان كانوا يلبسون جلد الماعز . وكانت اعدادهم اصبعية وساكنهم في الكهوف وآلات القتال عندهم الحربة والترس ولكنهم كانوا يجهلون القوس كالمصريين . وآلاتهم الزراعية كانت تنحصر على عصاً منتهية بقرني تيس . وكانوا ككل الشعوب الاولية لا يقلبون الارض بل يضعون البزور في حفر صغيرة . واذا بنوا بيوتاً جعلوها مستديرة غير عالية وبنوها بحجارة مرصوصة بعضها فوق بعض بلا مونة . وكل « بيت » من هذا النوع كان يسع نحو عشرين نفساً . وكان البراز

(١) Psychologie Ethnique par Gustave Le Bon

شائعاً بينهم وكان نظامهم السياسي ملكياً (موناركياً) ولامة منقسمة الى ثلاث طبقات الاولى الاشراف الذين يعيشون بلا عمل على دم العمال والثانية الكهنة تجار الخرافات والثالثة العمال المستعبدون · وكانوا مثل المصريين في تصوير موتاهم ودفنهم في المقابر · وزواج الاخ بالاخت كان جائزاً عندهم وكذلك الضرار والبولندرية [1] وقد انقرض هذا الشعب تماماً الآن

(٢) الطوارق · هم كما وصفهم ابن خلدون ذوو صفات ادبية عالية من الامانة والشجاعة والكرم · وقد قال طارقي عنهم ان اسماء الطوارق تعني الحرية والصراحة والاستقلال والنهب · وهذه الصفة الاخيرة محالة عندهم اذا لم تقع على طارقي · ولنسائهم حرية واسعة ولا يحتجن لازواجهم بالضرار وان كان الاسلام قد جوّز لهم ذلك · ونظام العائلة ما زال امياً [2] عندهم · واعطاء الضيف زوجة المضيف للبيت معهُ يعتبر من الكرم · وما زال كثير من خرافاتهم بالياً للآن · فهم يعتبرون السيارات احياء · فاذا حدث كسوف مثلاً قالوا انهُ « رزية » من الكاسف على المكسوف · ويمكن القول بان الجوانش والطوارق شعب واحد والفرق بينهما درجة في النشوء فقط

(٣) القبائل · هذا الشعب يسكن شمال افريقية ايضاً مثل الشعبين السابقين · وهو ديمقراطي في نظامهِ القبائلي فكل قبيلة تسكن قرية لها حكومة مستقلة والمساواة عامة بين الافراد · فلا اشراف ولا امتيازات عندهم · ولهم ذوق عالٍ للشعر والغناء وهم يعدونهما من الصنائع الشريفة

هذه هي الشعوب البيضاء التي لا بد ان يكون العنصر الابيض في مصر مؤلفاً منها · وهاك الشعبان الاخران

(٤) الهوف · سكان مدغشقر (جزيرة في الجنوب الشرقي من افريقية) جاءوا اليها من الحبشة وهم قريبون من الاثيوبيين في اخلقة ولكنهم يغيرون صفاتهم الخربية · فهم مثل الاثيوبيين يمنحون بناتهم حرية كبيرة · فالبنت الهوفية حرة في اختيار زوجها وفي مصاحباتها · وقبل الزواج النهائي تتزوج على سبيل التجربة فاذا حملت عقدت الزواج مع رفيقها · والطلاق سهل حتى انهم يقولون « الناس تتزوج لكي تنفصل » ويستعملون كلمة را بمعنى سيد · وهذه الكلمة كانت تستعمل في مصر بمعنى والد مما يدل على اصل الهوف الافريقي وقرابتهم من المصريين

(١) اي تزوج المرأة باكثر من رجل (٢) نسبة الى الام

وهم كمثل الشعوب الضعيفة كثير والمكر والخبث والسرقة والخيانة ولغتهم غنية بالفاظ هذه المعاني واظلالها. والقط الوحشي مقدس عندهم كما كان عند المصريين فسارقهُ يعاقب بخمس سنوات سجناً . والسحر جناية فمن يسحر الملكة يحكم عليهِ بالاعدام

(٥) الاثيوبيون . هم سكان الحبشة . ومن مميزاتهم حرية الزواج وحرية المرأة التي تزيد احياناً على حرية الرجل . وهذا الشبه شديد بينهم وبين المصريين . ومن بقايا العوائد المصرية عندهم الاحتفال التناسلي "circoncision" بعد البلوغ

ومن عوائدهم اكل لحم الخنزير . وليس لهم صناعات تستحق الذكر غير الحدادة والصياغة ومجراتهم كالمجرات المصري . ورغماً عن طلاء المسيحية ما زالوا غارقين في الخرافات حتى قسومهم تعتقد السحر . وقانونهم هو قانون يوستنيانوس البزنطي الذي يجب معرفتهُ على كل حر . وسنتهم السنة القبطية

٢ — صناعات المصريين وعاداتهم

اهم ما يجب ملاحظتهُ في درس احوال المصريين العقلية هو مبدأ الجمود وكراهة التغيير ففي عهد الرومان لما عرفت المعادن وجرى استعمالها كان المصريون لا يزالون متشبثين بادواتهم الحجرية . ذكر ماريت حادثة تدل على هذا الجمود . وهي انهُ في سنة ١٨٨٧ رأى في العراية المدفونة قبطياً يحلق رأسه بموسى من الحجر الصوان ويرطبهُ بورق الشجر الاخضر . وهذا الجمود هو سبب سهولة درس المدنية المصرية . فاللغة لم تتغير ومنطقها واحد منذ نشوئها الى حين استبدالها باللغة اليونانية . ومما يجب معرفتهُ ايضاً في المصري الخضوع فهو يساق سحراً كأنهُ يرى العمل طبيعياً . ومزاجهُ بهيج كما ترى في تنكيته على الملوك والكهنة في الصور الباقية . وكانت المهن والفنون وراثية فادى ذلك الى شدة الجمود فيها . وكانوا يعتقدون ان توت الاله هو خالق العلوم فزاد هذا في تعطيل نشوئها . وكانت ملاهيهم تكاد تكون وحشية فهي الاكل الى حد القيء والغناء والرقص . والجمود ظاهر ايضاً في اديانهم فمع انها ارتقت في التجرد الروحي كانت لا تزال تقدس الحيوانات . وكانت كتاباتهم صورية ارتقت منها المعاني . فكانوا يعبرون عن الشمس بدائرة في وسطها نقطة ثم عنوا بها اليوم وهكذا

ونظام العائلة لم يتغير عندهم من عهد التوحش الى عهد الرومان . فهو أمي أي ان الام هي رئيسة العائلة التي ينتسب اليها . وكان الزواج جائزاً بين الاب وبنتهِ والاخ واختهِ . وفي الغناء الشعري كلمة « اخ » تعني عاشقاً وكلمة « اخت » تعني عاشقة

وسبب هذا الزواج ان الانسان في بدء نشوئه كان لا يعرف سبب النسل فكان يظن ان الاولاد تظهر كما تظهر الاثمار على الشجرة بقوة غير انسانية . ولا يمكن ان المصريين في عهد تمدنهم كانوا يجهلون سبب ولادة الاولاد . ولكنهم ابقوا العادة التي كانت شائعة في زمن توحشهم لشدة جمودهم

وقلة الحروب وبالتالي عدم نهب المرأة ويحها وسع في سلطتها في مصر . فكانت املاكها محفوظة لها ويمكنها ان تقاضي زوجها وتشترط عليه ان لا يطلقها او يتزوج غيرها مع حفظ هذين الحقين لنفسها . هذا هو عصر المرأة الذهبي

وفي بعض الحالات كان الحب الحر شائعاً ولم يتقوض العمران بسببه[1] كما هو شائع اليوم في برلين وباريس ولندن وعند كل امة متمدنة سلامه موسى

(١) [المقتطف] ان نظام العائلة الموجود الآن في ممالك اوربا مبنيٌّ على التديُّن والتدقيق اللذين كانا شائعين فيها في القرن الماضي وما قبله . ولهذا النظام شأن كبير في العمران الاوربي فكيف يصير هذا العمران اذا تقوَّض اعظم ركن من اركانه ولاسيما اذا حدث ذلك قبلما ترسخ في النفوس اصول جديدة للآداب . ان الانتقال من حال الى حال شديد الخطر في كل شيء ومن يستطيع ان يقول انهُ لا يكون كذلك في تغيير اصول الآداب ونظام العيال فان التربية القديمة التي اساسها خوف العقاب والطمع بالثواب ولَّدت اناساً لا يكذبون ولا يسرقون ولا يخدعون ولو كانوا يأمنون من كشف كذبهم وسرقتهم وخداعهم فهل تبقى هذه الاخلاق راسخة في النفوس اذا ثبت ان الكذب لا يضرُّ الكاذب الاَّ اذا نتجت عنهُ خسارة للغير طالبَ بها والسرقة تنفع السارق ولا تضرهُ اذا استطاع اخفاءها والخداع ينفع الخادع ولا يضرهُ والانسان غير مكلَّف بمراعاة مصلحة سائر الناس اكثر مما هو مكلَّف بمراعاة اسراب الظباء السارحة في افريقية والرجل الندب من اكل غيره . كلاَّ فلا نسرعنَّ الى اقتباس الآراء الاوربية الحديثة قبل ان يؤيدها العلم ويثبت فائدتها الاختيار

اما العمران القديم الذي لم يتقوَّض مع شيوع الحب الحر او السفاح فالاستدلال بهِ لا يكفي لاننا لا نعلم كل ملابساته ولا درجتهُ . وهل نرضى بعمران مثلهُ يسخر فيهِ عشرات الالوف لبناء هرم مدفناً للملك وقوتهم الفول والكراث . ولا ينكر انهم ابقوا في كتاباتهم المنقوشة ما يدل على آداب رائعة ولكن الوصايا ليست كل العمران